من ثقافة القرآن

(٥)

من أمراض الذات والمجتمع

لجنة التأليف ـ مؤسسة البلاغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الفهرست

المقدمة..... ٧

مدرسة التأريخ ٩

البطانة والملأ ١٦

المفسدون في الأرض..... ٢٨

المؤسسات الضرارية..... ٣٦

العبرة من الحادثة ٤٢

ساعة الندم ٤٥

بطر المعيشة.. فساد للذات والمجتمع ٥٤

المقدمة

يستوعب القرآن كلّ ما تحتاجه البشرية في حياتها، وفي أُخراها.. ثبّتَ القرآن قواعد الفكر وأُصول العقيدة، وشرّعَ الأحكام والقوانين، ودعا إلى قيم الأخلاق والسلوك والعلاقات الإنسانية السليمة.. واعتبر محتوى الذات الداخلي هو منطلق التغيير وبناء الإنسان السليم، ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ..** ﴾ (الرّعد/ ١١).

﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ (الشعراء/ ٨٨-٨٩).

﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ (الشمس/ ٩-١٠).

ومن هذا المنطلق جاء اهتمام القرآن وتركيزه على الجانب الأخلاقي والسلوكي عند الإنسان.. والجدير ذكره إنّ مشكلة الإنسان الكبرى هي مشكلة نفسيّة وأخلاقيّة، قبل أن تكون مشكلة مادّية تراها مُجسَّدة في مجال التعامل مع الآخر وفي مجال الاقتصاد والسياسة والأسرة، بل وفي مجال العلاقة مع الله سبحانه.

لقد تحدّث القرآن عن الإنسانية كقيمة عليا في حياة الإنسان.. كرّسَ العديد من الأحكام والقوانين والقيم الأخلاقية لحمايتها والحفاظ عليها، وتربية الإنسان على احترامها لتستقيم الحياة وتنتظم العلاقة البشرية

والتعامل الإنساني مع الآخر.. تلك دعوة القرآن وهذه مناهجه في التربية وبناء الذات والمجتمع.

وفي هذا الكتاب الذي اخترنا له اسم "من أمراض الذات والمجتمع" وهو الكتاب الخامس من سلسلة (من ثقافة القرآن)، عرّفنا فيه جانب من ثقافة القرآن وتربيته النفسية والأخلاقية وتنظيم السلوك.. نأمل أن يكون إضامة جديدة من الثقافة الإسلامية تضاف إلى ثقافة القارئ المسلم، ودليل وعي يساهم في تصحيح المسار السلوكي وبناء الذات.

نسأل الله سبحانه أن يهدينا جميعاً للانتفاع بهدي القرآن، والسير على نهجه القويم.. إنّه سميعٌ مجيبٌ.

مؤسسة البلاغ

مدرسة التأريخ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف/ ١١١).

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم/ ٤٥).

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (الحاقة/ ١٢).

ويتحدّث القرآن عن تجارب الشعوب والأُمم، ومسيرة التأريخ، وحوادث الماضي، خيرها وشرّها ليُثقّف الأجيال، وليتّخذ من التأريخ مُعلّماً ومدرسةً وخبرةً إنسانية فاعلة.. يتحدّث له عن الهدى والضلال.. وعن الصراع الفكري والعقيدي بين الأنبياء عليهم السلام وبين الطواغيت والمجرمين.. ويتحدّث عن تسلط الطواغيت والإرهاب.. ويتحدّث عن خيرات الطبيعة وظروف المعيشة والاقتصاد، وما فيها من رخاء ونعمة واستقرار، ومن ضيق وعسر.. ويتحدّث عن الظلم والاستكبار والمستضعفين.. ويتحدّث عن كوارث الطبيعة وأثرها في حياة الإنسان.. ويتحدّث عن السُّنن والقوانين التي تتحكّم في مسيرة الحوادث والوقائع،

ليُثقّف الإنسان ويُوضِّح له أنّ حركة التأريخ والمجتمع تجري وفق قوانين وسنن، وليست حركة عشوائية..

إنّ هذه القوانين والسُّنن تنطبق على انحلال الدول والحضارات وسقوط الأُمم وتدهورها، كما تنطبق على رقيها وتقدُّمها.. فكلّ أحداث التأريخ وحركة المجتمع، سواء التصاعدية المتطورة منها، أو الحركة التنازلية نحو السقوط والتدهور والانهيار، إنّما تجري وفق قوانين وسُنن إلهيّة.

وبعبارة أخرى، كما تنطبق قوانين العلية والسببية في عالم الطبيعة، كما في قوانين الفيزياء والكيمياء وعالم الأحياء.. فكلما وُجِدَ السبب وتوفّرت الشروط والظروف اللازمة والمتماثلة أعطت نتائج متماثلة وفي أي زمان ومكان.. فإنّها تجري على وقائع المجتمع والتأريخ الإنساني وحوداثه.. فكلّ حركة التأريخ والمجتمع تجري وفق قوانين وسُنن.. وإن تكرّرت تلك العلل والأسباب أو الظروف، ينتج عنه تكرّر الوضع الاجتماعي والتأريخي نفسه.. وينبغي أن نُوضّح هنا أنّ الفارق بين حوادث الطبيعة، سواء الطبيعية أو المختبرية، تجري بصورة قسرية.. أمّا في عالم الإنسان والمجتمع، فتجري الوقائع والحوادث بصورة اختيارية.. فالإنسان حُر مختار وهو الذي يدفع نفسه تحت طائلة القانون التأريخي فيفقد اختياره باختياره.

لذا نجد القرآن يُحذِّر من تكرار الأوضاع التأريخية التي مارسها الطغاة والمفسدون والمجرمون والظالمون، وقادة الكفر والجاهلية والضلال لئلّا

يحلّ بالأجيال المتلقية لهذا التحذير والتثقيف ما حَلَّ بالماضي من كوارث وخراب ودمار.. ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يوسف/ ١١١).

عبرة وموعظة ودرساً لأصحاب العقول الذين يعون فلسفة التأريخ، وتجربة الماضي، ودلالة الحدث مفسراً بعلله وأسباب حدوثه، وتجسد آثاره ونتائجه.

والقرآن يتحدّث عن طواغيت الأرض والمفسدين فيها، وعن المصير الذي حَلَّ بهم، ويُحذِّر من تكرار المشهد والسلوك الطاغوتي والتسلُّطي.. وكثيراً ما يركّز القرآن على الظاهرة الفرعونية باعتبارها أسوأ مظاهر الظلم والطغيان والفساد.

نقرأ هذا البيان في خطابه تعالى للنبيّ موسى عليه السلام: ﴿ **ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ** ﴾ (طه/ ٢٤).

﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ (الفجر/ ١٠-١٣).

ثمّ يتحدّث عن صورة من صور هذا الطغيان والاستبداد والتكبُّر الذي عبَّر عنه فرعون بموقفه وقوله: ﴿ **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠**

رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ (النازعات/ ٢٣-٢٦).

وهكذا يلفت القرآن الأنظار، ويُوجّه العقول للعبرة والموعظة، ويدعو لاستفادة التجربة ووعي الماضي: ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ** ﴾ (النازعات/ ٢٦).

والقرآن يُوضِّح أنّ هناك قوانين وسُنناً إلهيّة، كما أسلفنا، تجري وفقها حوادث التأريخ، وأوضاع المجتمع البشري.. نقرأ هذه البيانات في قوله تعالى: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾ (الفتح/ ٢٣).

﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران/ ١٣٧-١٣٨).

ومن سُنن الله تعالى وقوانين التغيير الاجتماعي ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (الرعد/ ١١).

وهكذا يعرض القرآن تعريفاً واضحاً للإنسان ويُوضِّح إنّ ما جرى في الماضي قد جرى وفق سُنن وقوانين انطبقت لأسباب وموجبات.. وذكر من هذه الأسباب الظلم والطغيان والكفر والاستكبار والفساد

والجريمة.. وإنّ أي مجتمع تكثر فيه هذه الظواهر فسينطبق عليه القانون الإلهي.. قانون العقاب والدمار والخراب والاستبدال.

وفي هذه الآيات وفي آيات أُخر، يدعو القرآن الإنسان إلى أن يسير في الأرض فينظر آثار الأُمم والشعوب الماضية، ويرى ما حَلَّ بها من خراب ودمار؛ ليكون ما يشاهده درساً وموعظةً فلا يُكرّر ما فعلوه؛ لئلّا يحلّ بالحاضرين ما حَلَّ بالماضين، نقرأ من هذه البيانات: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (النمل/ ٦٩).

﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (يونس/ ١٣).

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ** ﴾ (القصص/ ٥٨).

﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ﴾ (الحج/ ٤٦).

وفي هذا السياق، يتحدّث القرآن عن الاستبدال عندما تنحرف مسيرة الإنسان عن جادة الصواب والهدى والإصلاح.. واستبدال أُمّة

مكان أُمّة، وزعامة ورئاسة مكان رئاسة وزعامة، ذلك ما نقرأه في البيّنات الآتية: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة/ ٣٩).

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ (مُحَمَّد/ ٣٨).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود/ ٥٧).

وكما عرض القرآن نماذج من الشعوب والأُمم والحُكّام الطُّغاة وما لاقوا من دمار وعقاب، كذلك عرض نماذج أخرى من الذين أقاموا العدل واستقاموا وسلكوا السلوك السويّ فعاشوا في ظلّ العدل والمحبّة والسلام.. نُسجّل من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج/ ٤١).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ

﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور/ ٥٥).

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص/ ٥).

تلك مدرسة التأريخ، وتجربة الإنسان وموعظة القرآن ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق/ ٣٧).

البطانة والمـلأ

تحدّث القرآن كثيراً عن الملأ وبطانة السُّوء ودورهم في صنع القرار وإدارة المواقـف، وجلـب المـشاكل والأزمـات، وعـزل القيـادات عـن المساحات التي يجب أن تتفاعل معها، ووضع الحواجز، وتغيير الحقائق والتحريض على الآخرين، وتقليب الأُمور على غير وجهها..

والملأ كما عُرّف في اللغة، هو: "الملأ: جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً... ومالأته: عاونته، وصرت من ملئه، أي جمعه، نحو شايعته، أي صرت من شيعته.."[١].

"ويقال ملأه على الأمر: ساعده وشايعه.. والملأ: الجماعة وأشراف القوم وسُراتهم.. ويقال: ما كان الأمر عن ملأ منّا: عن مشاورة.."[٢].

وعُرّفت البطانة بأنّها: "... والبطانة صفي الرجل يكشف له عن أسراره"[٣].

١- الراغب الإصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، كلمة (ملأ)، ص٧٧٦.

٢- المعجم الوسيط، كلمة (ملأ)، ص٩٢٠.

٣- المعجم الوسيط، كلمة (بطانة)، ص٨٢.

"... وتستعار البطانة لمن تختصّه بالاطلاع على باطن أمرك، قال عزّ وجلّ: ﴿ **لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ** ﴾ (آل عمران/ ١١٨).. أي مختصّاً بكم، يستبطن أُموركم، وذلك استعارة من بطانة الثوب بدلالة قولهم، لبست فلاناً: إذا اختصصته، وفلان شعاري ودثاري.. ورُوي عنه ﷺ: «**ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلّا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشرّ وتحثّه عليه**»[٤].

ولكي يزداد القادة السياسيون والدينيون والاجتماعيون، وكذا المصلحون والمستضعفون وغيرهم وعياً وثقافة تشخيصّية بمن يتخذونه بطانة ومستشاراً ومشاركاً في الرأي والقرار، ومَن يشارك في صناعة القرار السليم، استعرض القرآن على مدى مسيرة الأنبياء، وتجارب الأمم، دور الملأ والبطانات الذين اعتمدهم مع الطُّغاة والمستكبرين.. وسَمّى حواشي ومستشاري الطُّغاة والمستكبرين والطبقة المتنفّذة في المجتمع بـ"الملأ".

والدراسة الميدانية لدور الملأ، الطبقة المتنفّذة "الحواشي والبطانات"، تظهر في عصرنا الحاضر أنّ لها دوراً كبيراً في صُنع القرارات والتأثير على القيادات ومراكز صُنع القرار.. لذلك عملت دوائر

٤- الراغب الإصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، كلمة (بطانة)، ص١٣١.

المخابرات العالمية على زرع وصناعة الحواشي والبطانات التي تُؤثّر من خلالها في القرار والموقف.. ويشتد خطر بعض الحواشي والبطانات المدرَّبة على التخطيط للإيقاع بالقيادات والسيطرة عليها، بل وتجريدها من دورها بشتّى الوسائل.. ولو بدفعها إلى المواقف التوريطية السيّئة.

وإنّ أخطر ما يمارسه الملأ "البطانات والحواشي" هو الإطراء والمديح والإغراء إلى حدّ التأليه والأوحدية، وحجز المعلومات الصحيحة، وتحسين القبيح، وتقبيح الحسن، وتقديم المعلومات الكيدية الكاذبة على المخلصين وتشويه صورتهم.. وكثيراً ما تكوّن هذه الطبقة الحواجز النفسية والموضوعية وتصنع منها جداراً عازلاً يشبه السجن، ولا يستفيق كثير من صُنّاع القرار إلّا بعد فوات الأوان واشتداد الأزمات.

واستعرض القرآن نماذج من مواقف أولئك الملأ، تلك الطبقة المتنفّذة في المجتمع وصُنع القرار، واستعرضَ مواقفها من الذين يتصدّون لحركة الإصلاح والتغيير ودعوة الحقّ والهدى.. من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الأعراف/ ٥٩-٦٠).

﴿ **فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ**

عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود/ ٢٧-٢٨).

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (الأعراف/ ٦٥-٦٨).

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف/ ٧٣-٧٥).

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞

(الأعراف/ ٨٥-٩٢).

لنقف أمام هذه المجموعة من البيانات القرآنية ولنحاول دراستها وتحليل مضامينها لنزداد وضوحاً بهذه الظاهرة.. فقد بدأ القرآن حديثه عن دور الملأ المواجه لنوح عليه السلام ومواجهته لدعوة التوحيد والتأليب عليه،

وكانت النتيجة أن حالوا بين الدعوة الإلهية ومشروع الإنقاذ الرسالي وبين ذلك الجيل.. فقادهم إلى الهلاك والدمار.. فقد كانت مصالحهم وسلطتهم مرتبطة بذلك الوضع الجاهلي، لذلك كانوا يعارضون التغيير المنطلق من التغيير العقيدي والإيماني.. ويصرّون ويحرّضون ضد دعوة التوحيد، تلك الدعوة الإصلاحية.. ويثيرون الشكوك والشبهات ويقنعون الأتباع بذلك..

وبهذا الاتجاه، يتحرّك الملأ في الأجيال التي تلت جيل نوح عليه السلام.. يتحرّك الملأ في قوم عاد.. يتحرّكون ضد النبيّ هود عليه السلام ويتهمون هذا النبيّ المصلح بأنّه ينطلق من سفاهة وأكاذيب ليقنعوا مجتمعهم بالإبقاء على سلطانهم ومكانتهم التسلّطية.. وانتهت مرحلة الصراع بالانتقام من هؤلاء المتسلّطين ومَن تابعهم.. وهكذا جنى الملأ.. جنى المتسلّطون والمتنفذون على مَن تابعوهم بالهلاك والدمار، كما حَلَّ بمَن سبقهم من قوم نوح على أيدي الملأ أيضاً.. وينتهي دور هذه الأُمّة.. أُمّة عاد.. وتحلّ محلها أُمّة ثمود.. ويبعث الله سبحانه صالحاً عليه السلام نبيّاً لهم.. وينطلق بدعوة الإصلاح والإيمان ويُذكّرهم بفضل الله وما وهبهم من أسباب العيش الرغيد.. من المزارع والسهول الخصبة والقصور والبيوت الفارهة.. فيواجهه الملأ المستكبر.. ويحشد الناس ضدّه، وضد مَن آمن معه مِن المستضعفين.. فيسُجّل القرآن مقالتهم بقوله: ﴿ **قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ**

لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف/ ٧٥).

وما كان حال هذه الأُمّة من الناس إلّا كحال مَن سبقها، إذ قادها الملأ المستكبر إلى إعلان الحرب على دعوة الهدى والإصلاح.. فكانت عاقبتهم الخراب والدمار والفناء.. ويأتي دور أُمّة أخرى، أُمّة مَدْيَنَ، ويرسل الله سبحانه إليهم شعيباً عليه السلام نبيّاً مصلحاً ناصحاً.. يعمل جاهداً لإنقاذهم ومحاربة الفساد والعبث الاجتماعي فيتصدّى طابور الملأ لدعوة النبوّة والإصلاح، ويقطعون عليهم الطُّرق والآفاق، ويحرضون ضدّ النبيّ شعيب عليه السلام، وضدّ المستضعفين الذين اتّبعوه.. ويتحدّث القرآن عن طاغية التأريخ فرعون وملئه ودور هذا الملأ في محاربة الدعوة الإلهية، وتأليهه فرعون، بل والتآمر على موسى عليه السلام، فيخاطبهم فرعون بقوله: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ** ﴾ (القصص/ ٣٨).

إنّهم يتجاوبون مع دعوة التأليه البشري، بل ويحرّضون فرعون على قتل موسى عليه السلام، ويُصوّرونه خطراً يجب التخلص منه.. ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ** ﴾ (الأعراف/ ١٢٧).

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الأعراف ١٠٩-١١٠).

وكما تحدّث القرآن عن الملأ ودورهم في إسناد الظلم والظالمين وتثبيت عروش الطُّغاة ومحاربة دعوة الحقّ والإصلاح، تحدّث عن بطانة السُّوء.. عن الخاصّة التي تحيط بأصحاب النفوذ والقرار والسلطة.. وحذّر من أن يتسلل إلى مركز قرار الأُمّة "الأُمّة المسلمة" أحد من أعدائها وخصومها.. وهاهو القرآن يصف هذا الصنف من الناس بعد أن نهى عن فسح المجال لهم.. جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران/ ١١٨-١١٩).

إنّه ينهي عن اتخاذ البطانات، وعن المستشارين والمقرّبين والمحسوبين على القيادات ومراكز صُنع القرار من غير المؤمنين المخلصين؛ جاء نهي القرآن عن اعتماد غير المسلمين المخلصين بطانات ومستشارين ومخططين لصُنع القرار.

فإنّ هؤلاء يريدون الإضرار بالأُمّة والمبادئ والأوطان والمصالح والكيان السياسي.. ويعملون على الإضعاف والتخريب، وإنّهم ليضمرون العداء والبغضاء.. وكثيراً ما يصدر عن هؤلاء من تصريح وتعبير عمّا تخفي صدورهم من العداوة والبغضاء للناس المخلصين، وما تخفي صدورهم ضد كيان الأُمّة العقيدي والسياسي ومصالحها ومنافعها.. ما تخفي صدورهم أعظم.. لذا يُحذِّرنا القرآن من أن نُخدع بهؤلاء الكذّابين المتملّقين الذين يظهرون لنا المحبّة والتوافق.. وإذا خلوا إلى شياطينهم والتقوا فيما بينهم، تفجّرت نفوسهم حقداً وعداءً وغيظاً، لذا يضرب القرآن لنا المثل السائر عند العرب، للمُبالغ بالحقد والعداوة.. إنّه يعضّ الأنامل من الغيظ.. إنّهم لا يُريدون أن يسمعوا حَسَنة للأُمّة المسلمة، ولا تقدُّماً ولا قوةً ولا عزّةً ولا تأييداً ولا نصرةً، فإن رأوا ذلك سيطر عليهم الحزن وساءت وجوههم.. وإن سمعوا بضعف أو تأخُّر أو أزمة أو مشكلة في كيان الأُمّة السياسي أو العقيدي أو الاجتماعي شمتوا وفرحوا.. وذلك مؤشّر على عدائهم المستبطن.

إنّ القرآن يُحذِّر من هؤلاء أن يتسللوا إلى مواقع السلطة والاستشارة وصُنع القرار، ويوصي بالصبر الإيجابي.. الصبر المقرون بالعمل وتطهير الصفوف من هؤلاء الأعداء.. إنّ القرآن يُثقِّف أتباعه والمؤمنين ويُحذِّرهم من ظاهرة الملأ، ويدعو إلى اتخاذ المؤمن الكفوء

النزيه الذي يحفظ السرّ ويمحض النصيحة ويبذل قصارى جهده لأداء المهمّة بوعي وإخلاص وتقوى وصبر.. يدعو لاتخاذه بطانة ومستشاراً.

إنّ مراكز السياسة والحكم ومواقع الزعامة والقيادة وصُنع القرار في عالمنا اليوم يُمارس فيها الملأ والبطانات المتنفّذة دوراً خطيراً في صُنع القرار وتوجيهه حتى صار من القضايا المحسوبة في التعامل مع هذه القيادة أو الزعامة والرئاسة، فيُسأل عندما يُراد تقييم القيادة وكيفية الوصول إليها، والحصول على إقناعها.. يُسأل مَن هم الأشخاص المؤثّرون في قرار ذلك القائد أو المسؤول.. فيعمل المخطّطون وأصحاب المصالح، أو حتى الذين يهمّهم صُنع القرار السليم.. يعملون على التأثير على الملأ والحواشي والبطانات.. وكلّ حسب ما يريد ويستهدف لاستحصال القرار.. ولأصحاب المال المموِّل للسياسة، ولأصحاب النفوذ الاجتماعي والسياسي دور خطير في تشكيلة الملأ والحواشي والبطانات التي تخدم مصالحهم، بل وبعض القيادات التي تسمح لها أخلاقها بالفساد الأخلاقي ترى الحواشي والبطانات المحيطة بها مليئة بهذا الصنف المتناسب مع هذه الأخلاقيات الفاسدة.. حواشي الرشاوى والتجسّس والجنس المحرّم... إلخ.

وكم حَمَلَ القرآن على أولئك المفسدين من القيادات والزعامات وحواشيهم.. إنّ الرسول القائد والهادي للرشاد يزيدنا وضوحاً في قوله

النيّر: «**وما بعث الله مِنْ نبيّ ولا استخلف مِنْ خليفة إلّا كانت له بطانتا: بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحثّه عليه**».

وتلك الحقيقة التي يخبر بها النبيّ محمّدﷺ هي حقيقة لها دلالات كبرى.. إنّ بطانات الشرّ والسُّوء تحاول التسلُّل حتى إلى حواشي الأنبياء والصالحين من القادة، لذا يجب الفرز بين نوعين من الحواشي والبطانات.. والقرآن الكريم والرسول العظيم محمّدﷺ يُزوّداننا بالوعي والثقافة القيادية لنحذر بطانة السُّوء وحواشي الشرّ، ونتخذ بطانة الخير والحواشي الخيّرة الأمينة النزيهة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا تخدع صانع القرار، وتعين على الخير والصلاح، وتساعد على إضاءة البصيرة السياسية والاجتماعية والإنسانية، لصُنع القرار السليم.

وكم من شخصيات سياسية واجتماعية وأصحاب زعامة ورئاسة ضَلّلتهم ودَمّرتهم الحواشي والبطانات النفعية والانتهازية..

ونقرأ بياناً آخر يزيدنا وعياً وثقافةً وتقوى، وهو خطاب الإمام عليّعليه السلام إلى مالك الأشتر، واليه على مصر حين خاطبه في كتابه إليه مُحذّراً من بطانة السُّوء وداعياً إلى اتخاذ البطانة الصالحة.. جاء في كتابهعليه السلام: «**إنّ شرَّ وزرائك مَنْ كان للأشرار قَبْلَكَ وزيراً، ومَنْ شَرِكَهُم في الآثام فلا يكُونَنَّ لك بِطانةً، فإنّهم أعوانُ الأئمةِ، وإخوانُ الظَّلمةِ، وأنتَ واجدٌ منهم خيرَ الخَلَفِ ممّن له مِثلُ آرائِهم ونفاذِهِم، وليسَ عليه مِثلُ آصارهم وأوزارهم، ممّن لم يعاون ظالماً على ظُلمهِ، ولا آثماً على إثمه. أولئك**

أخفُّ عليك مؤونةً، وأحسنُ لك معونةً، وأحنى عليك عطفاً، وأقلُّ لغيرك إلفاً (الإلفة والمحبّة)، فاتَّخذ أولئك خاصّةً لخلواتكِ وحفلاتكِ، ثُمّ ليكُنْ آثرهُمْ عندَكَ أقولَهُمْ بمُرِّ الحقّ لكَ، وأقلّهُمْ مساعدةً فيما يكونُ منك ممّا كَرِهَ الله لأوليائهِ، واقعاً ذلك مِنْ هواك حيثُ وَقَعَ، والصقْ بأهلِ الورعِ والصّدقِ؛ ثُمّ رُضْهمْ على أن لا يُطرُوك ولا يُبجّحوك بباطلٍ لم تفعله، فإنّ كَثْرَةَ الإطراءِ تُحدِثُ الزَّهوَ، وتُدني مِن العزَّةِ»[٥].

٥- نهج البلاغة، رسالة ٥٣، ص٥٩٦.

المفسدون في الأرض

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة /٣٠).

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف/ ٥٦).

ويُحدّثنا القرآن عن الفساد والمفسدين.. ويضع أمامنا علامات الخطر والتحذير منهم.. فيروي لنا القصة الأُولى عن إرادة الله سبحانه لخلق الإنسان، ليعيش على سطح هذا الكوكب.. فقد أعلم الله سبحانه الملائكة بإرادته خلق الإنسان.. فكان السؤال.. سؤال الملائكة: كيف يستخلف في الأرض مَن يفسد فيها؟

نقلَ القرآن لنا هذا السؤال المرفوع إلى ربّ العزّة من خلال مشهد الحوار المنقول بقوله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة/ ٣٠).

فكان الجواب: ﴿ ...إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

والقرآن إذ يخبرنا بهذا الاعتراض، ويثبت هذا النص إنّما أراد أن يُثقّف على أنّ الخطر الأكبر الذي يُهدّد النوع الإنساني على سطح هذا الكوكب.. هو (الفساد في الأرض).. وبذا أيضاً أراد أن يُثبّت وجوب حماية حقّ الحياة لكلّ إنسان.. وأنّ مَن يُفسد في الأرض ويُسفك الدماء لا يستحق الحياة على هذه الأرض؛ وهذا المفهوم هو الذي يستشف من ثنايا النص، لذا كان العقاب القصاص.

ويستنكر القرآن جريمة القتل والفساد في الأرض واعتبرها من أكبر الجرائم.. فقتل النفس بقصد نشر الفساد في الأرض تُعادل قتل الناس جميعاً.. ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة/ ٣٢).. وذلك تحذير وإنذار للبشرية جمعاء ودعوة لها لمقاومة القتل المنطلق من نشر الفساد في الأرض بصورة جماعية لأنّه اعتداء على حياتها وإنسانيتها.

والفساد في اللغة هو: ضدّ الصلاح.. وهو الخروج عن الاعتدال.. وعندما نُدقّق في نص الآية الكريمة: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**... ﴾ نعرف أنّ الخطر الأكبر على البشرية هو الفساد في الأرض، وسفك الدماء.. والفساد هو تخريب ما كان صالحاً وجميلاً وجارياً وفق قوانين التكوين القائمة على أساس العدل والعلم والحكمة.

فقد خلق الله سبحانه كلّ شيء في هذا الوجود على الخير والصلاح، وإنّما يفسده الإنسان.. وإنّ أعظم فساد في الأرض هو سفك الدماء.. وكم هو جميل قول الشاعر:

كُلّمَا أنبتَ الزمانُ قناةً ركَّبَ المرءُ في القناةِ سنانا

ويُحدث المفسدون في كلّ مجال من مجالات الحياة الفساد الفكري والعقيدي، والفساد السياسي، والفساد الاقتصادي، والفساد الأخلاقي، والسلوكي ـ الفردي منه والاجتماعي ـ، والفساد العمراني والبيئي... إلخ.

وقد تحدّثت حوالي خمسين آية عن الفساد والمفسدين في الأرض.. وهي مساحة نصّية ومفهومية واسعة.. كلّ ذلك التركيز من أجل التحذير ومقاومة الفساد والمفسدين، والمخرّبين في ربوع الأرض العامرة.

وفي المقابل، تحدّثت حوالي اثنين وأربعين آية عن الإصلاح والمصلحين.. والأرض يوم خرجت من يد بارئها.. ومن ساعات اكتمال تكوينها، خرجت صالحة نقيّة بكامل مكوناتها المعدة للعيش والبقاء.. والقرآن يُوضّح ذلك ببيانه الواضح: ﴿ **وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا** ﴾ (الأعراف/٥٦).

ويتحدّث القرآن عن أسوأ مشهد من مشاهد الفساد في الأرض وهو القضاء على الحياة وتدميرها بما فيها تدمير البيئة وتخريبها..

نقرأ وصف المفسدين المجرمين المتظاهرين بالإصلاح والمتشدّقين بالادعاءات والأقوال المغرية التي يحسبها الناس خيراً، وهم يضمرون في نفوسهم العدوان والفساد والتخريب.. فإذا تمكّنوا واستوت لهم الأُمور، واستولوا على السلطة والقوّة ظهروا على حقيقتهم، وألقوا برقع النفاق عن وجوههم، وراحوا ينشرون الفساد في الأرض.. يهلكون بجرائمهم وإفسادهم (الحرث).. الزرع وما أنبتت الأرض.. كما يهلكون النسل.. يهلكون الأحياء من الإنسان والحيوان.

إنّ القرآن يُصوِّر أولئك المفسدين أعداءً للحياة.. يُصوِّر لنا القرآن هذه الصورة البشعة للمجرمين المفسدين في منظومة من النصوص، جاء فيها: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ** ﴾ (البقرة/ ٢٠٤-٢٠٦).

إنّ أقوى أسلحة الفساد في الأرض، هو سلاح السلطة والمال والجنس والإعلام الذي يُستخدم من خلال دول ومؤسسات وبؤر تُنظّم وتُخطّط وتعمل على نشر الفساد.. إنّ أخطر قوى الفساد في الأرض هي القوى التي تملك السلطة، وتستخدم نفوذها وسلطانها لنشر الفساد العقيدي والأخلاقي وغيره من ألوان الفساد في الأرض.

والفساد يُمارس تارةً بصورة فردية وبدوافع ونزوات شخصية.. وتارةً يُمارس ضمن تفكير وتخطيط وعمل مقصود لإفساد الشعوب وتدمير القيم الإنسانية، بل وتدمير سلامة البيئة والطبيعة لأغراض سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، بل لجأ البعض إلى القضاء على النسل البشري عن طريق نشر بعض الأمراض، أو المواد التي تُسبّب العقم كحرب عنصرية وعرقية.. ويُشخّص القرآن هذا العمل الإجرامي بوصفه العمل المفسد إنّه: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ** ﴾ (البقرة/ ٢٠٥).

وعندما نستقرئ آيات القرآن الكريم المتحدّثة عن الفساد والمفسدين في الأرض، وما جاء في الدعوة إلى الإصلاح ومؤازرة المصلحين وتعظيم مكانتهم ودورهم في بناء المجتمع، نرى خطّين واتجاهين: خط القرآن واتجاهه الإصلاحي وحربه على الفساد والمفسدين، وخط الفساد والظلم والطغيان.. الذي يقوده الطغاة والمتسلّطون.

ويعرض القرآن أسوأ مشهد من مشاهد الفساد في الأرض وهو مشهد العصابات وقُطّاع الطُّرق والإرهابيين الذين ينشرون الخوف والرُّعب في الأرض.. واعتبر أولئك المفسدين محاربين لله ولرسوله.. لأنّهم محاربون للحقّ والأمن والسلام الذي دعا له الإسلام.. ولعظم الجريمة التي يرتكبونها يُشدّد العقوبة والعقاب عليهم.

نقرأ ذلك في بيان القرآن الآتي: ﴿ **إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (المائدة/ ٣٣-٣٤).

وبعد أن يتحدّث القرآن عن أعظم الجرائم، وهي سفك الدماء ونشر الفساد وتخريب الأمن والسلام، أوضح لنا أنّ الله سبحانه خلق كلّ شيء على أُسس الخير والصلاح وإنّما هو الإنسان يفسد في الأرض، فيسفك الدماء ويهلك الحرث والنسل ويُخرّب البيئة، ويُفسد الفكر والعقيدة والسلوك والأخلاق، ويُمارس الظلم والطغيان.

والقرآن يُوضّح هذه الحقيقة بقوله: ﴿ **ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ﴾ (الرُّوم/ ٤١).

إنّ القرآن يخاطب النوع البشري بهذا النص، ويُوضّح للإنسان أنّه هو المسؤول عن الظلم والفساد وانتشاره في الأرض كظاهرة اجتماعية مدمرة، ولهذا الفساد مردودات اجتماعية وأمنية ونفسية وسياسية واقتصادية... إلخ، خطيرة على المجتمع البشري، وإنّ الله سبحانه معاقب على ذلك عقاباً اجتماعياً، بالإضافة إلى العقاب الأخروي.. ولهذا العقاب حكمة إصلاحية.

لعلّهم يرجعون من الفساد إلى الإصلاح، بعد أن يذوقوا مرارة الفساد وآثاره السيّئة المدمّرة، فيندموا على ما فعلوا، ويعودوا إلى الصلاح والصواب.. إنّه يفتح أبواب التوبة لهم، والعودة إلى الحياة الطبيعية، والاندماج الصحّي في المجتمع لئلّا يستولي عليهم اليأس والحقد على المجتمع فيزدادوا نقمة وفساداً.

ويتحدّث القرآن عن المصرّين على الفساد، ويتعاملون بمنطق الخداع والمغالطة واستغفال الناس ومحاولة تغيير الحقيقة.. أولئك الذين يُشخّص المصلحون ودعاة الحقّ والناهون عن المنكر جرائمهم وفسادهم ويطلبون منهم ترك الفساد وتغيير المسار نحو الإصلاح، تراهم يكابرون ويدّعون أنّهم هم المصلحون.. وفي وصف القرآن لأولئك الزّمر الفاسدة نقرأ أنّهم مرضى ومخادعون ومفسدون: ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ** ﴾ (البقرة/ ٩-١٢).

وكلّ ما اتّسعت الحياة وتطوّرت وتفرّعت مجالاتها، كثر الفساد والتخريب.. ومن المفارقات أن يكون مع الرفاه الاجتماعي والاقتصادي والتطوّر العلمي.. أن يكون مع ذلك إزدياد الفساد والتخريب وسفك الدماء.. والقرآن يعرض نموذجاً اجتماعياً لهذه الظاهرة بنصّه النيّر: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا**

مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل/ ١١٢).

والواقع الذي يعيشه العالم اليوم ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين.. يشهد بتزايد الفساد الفكري والأخلاقي والسياسي والمالي والبيئي... إلخ، كما ويشهد الكوارث المفجعة من سفك الدماء واحتراف القتل والإبادة الجماعية في كلّ بقعة من بقاع الأرض إلّا ما ندر، وهو مصداق لقوله: ﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (الرُّوم/ ٤١).

إنّ الممارسات البشرية الشاذة هي التي أحدثت الفساد في الأرض بما فيها من برٍّ وبحرٍ.. والقرآن يُوضِّح إنّ هذا الفساد الأخلاقي والمالي والسياسي والأمني والبيئي وسفك الدماء... إلخ، سيرتد أثره السيّئ والمدمّر على الناس، وسيذوقون وبال أمرهم ونتاج فعالهم.

إنّ القوانين الاجتماعية والطبيعية التي أودعها الله في هذا العالم.. إنّها تعمل عملها.. فالأسباب الشريرة والسيّئة تعطي نتائج شريرة وسيّئة.. والإنسان هو الضحيّة، وذلك جزء من العقاب التكويني الذي أودعه الله في هذه الحياة.. والقرآن يدعو الإنسان إلى أن يُفكّر في ما وقع عليه من خراب وعذاب ودمار وشقاء في هذه الحياة بسبب ما اقترفت أيدي الناس.. يدعوهم إلى أن يتعظوا ولا يُكرِّروا الخطأ فيتكرّر العقاب للتلازم بين السبب والنتيجة.. أن يرجعوا عمّا فعلوا من جرائم ومعاصي وعصيان، متعظين بما وقع بهم من شقاء وعذاب ودمار اقترفته أيديهم.

المؤسسات الضرارية

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (التوبة/ ١٠٧).

ويتحدّث القرآن عن أخطر ظاهرة اجتماعية في المجتمع الإنساني، وهي ظاهرة النفاق السياسي والعقيدي والتآمر وتشكيل الطابور الخامس.. طابور الجواسيس والمتآمرين على عقيدة الأُمّة وقيادتها الرشيدة وكيانها السياسي.. الذين يُخطّطون للإيقاع بها والقضاء عليها بالتعاون مع أعدائها.

ويحاولون التستُّر على أعمالهم هذه من خلال واجهات ومؤسسات خدّاعة.. تبدو في ظاهرها لمن لا يعلم بحقيقتها، تبدو مؤسسات أو أعمال أو جمعيات أو منظمات إنسانية أو دينية أو خيرية أو أمنية أو فكرية أو كيانات سياسية هدفها خدمة المجتمع.. إنّ أولئك المنافقين والمتستّرين على حقيقتهم، يتخذون من الدين والنفع العام ستاراً لهم، كالمساجد والأعمال ذات الصبغة الدينية والإنسانية.

ويُسجّل القرآن ظاهرة نفاقية متآمرة.. في بداية الهجرة النبوية إلى المدينة، وتأسيس الدولة الإسلامية فيها، وظهور الإسلام ككيان

سياسي وعقيدي، وحدوث الانقلاب والتغيير الاجتماعي الواسع، وانتشار الفكر والثقافة الإسلامية التي قضت على ظاهرة الفرقة والخلاف ووَحَّدت العرب آنذاك في كيان سياسي وعقيدي متين.. شعرت قوى الردة والظلام ـ المتمثلة في اليهود والمنافقين ـ بقوّة الدعوة الإسلامية، ودخول الناس أفواجاً في دين الله، وتعاظم قوّة الإسلام العسكرية والسياسية والاجتماعية.. لقد أفلست هذه القوى الظلامية في داخل البلاد، فلجأت إلى التعاون والتنسيق والتآمر على الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكيان الأُمّة الفتية، والاستعانة بالقوى الخارجية، فتحرّكت قياداتهم للاتصال والتنسيق مع دولة الرُّوم المعادية في بلاد الشام؛ للإطاحة بالدعوة والرسالة والقيادة النبويّة.. وكان لابدّ من واجهة مناسبة للمرحلة والثقافة المقبولة في المجتمع يتستّرون بها، ويتخذونها مقراً للتآمر ومخادعة الرأي العام الإسلامي في المدينة المنورة، فبنوا لهم مسجداً.

فكشف الوحي الإلهي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذه المؤامرة، وأخبره بأنّ هذا المسجد الذي ادّعو إنّه للعبادة والتقوى وتعلُّم العلم وأحكام الشريعة ومساعدة المحتاجين وتسهيل الوصول إليه وجمع الناس فيه.. إنْ هو إلّا مؤسسة ضرارية هدفها الإضرار بالمؤمنين ومحاربتهم، وليس مسجداً للعبادة والإصلاح، فلا تستجب لطلبهم، ولا تُصلِّ في هذا المسجد، فإنّه مؤامرة تضم المتآمرين وأعداء الإسلام.

جاء هذا البيان الإلهي في عدد مِن الآيات لنقرأها ولنتأمَّل وننعم النظر فيها لتكون دلالاتها وأسباب نزولها مادّة للوعي السياسي والاجتماعي والعقيدي كما أراد لها القرآن ذلك.

قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث الضراري الخطير بقوله الخالد: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة/ ١٠٧-١١٠).

قال الطبرسي في سبب نزول هذه الآيات (١٠٧-١١٠) من سورة التوبة: "إنّ بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم وصلّى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، فقالوا: نبني مسجداً نُصلّي فيه ولا نحضر جماعة مُحَمَّد ﷺ.. وكانوا اثنى عشر رجلاً، وقيل خمسة عشر

رجلاً، منهم ثعلبة بن حاطب، ومعتّب بن قشير، ونبتل بن الحارث، فبنوا مسجداً إلى جنب قباء.

فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله ﷺ! إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه، وتدعو بالبركة، فقال ﷺ: إنّي على جناح السفر، ولو قَدمْنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه. فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد (ضراراً) أي مضارة بأهل مسجد قباء، أو مسجد الرسول ﷺ ليقلّ الجمع فيه..

فَوَجَّه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم، وكان مالك من بني عمرو بن عوف، فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه، ورُوي أنّه بعث عمار بن ياسر ووحشياً فحرّقاه، وأمر بأن يتخذ كناسة تُلقى فيه الجيف"[٦].

حوى هذا النص القرآني الوارد في الآيات (١٠٧-١١٠) من سورة التوبة بياناً وكشفاً لمخططات المنافقين وأعمالهم التي يتظاهرون بها في كلّ زمان ومكان، لذا يكشف أهداف هذا المسجد.. إنّه مسجد ضراري،

٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، مجلد ٥، ج١١، ص ١٢٥-١٢٦.

ينطوي على أهداف ضرارية عديدة.. من الأهداف الهدّامة للذين اتخذوه: نشر الكفر والضلال والانحراف وإحداث الردّة الفكرية والسلوكية.. إيجاد الفرقة والخلاف بين المسلمين وشقّ الصف بتأسيس مسجد ضراري، مقابل مسجد التقوى والإيمان الذي يقوم فيه الرسول ﷺ والمخلصون من المؤمنين الصادقين.. فعلَ المنافقون ذلك ليكونوا جماعة مضادّة مضارّة.. ويُشكّل هذا الهدف غاية أساسية في المخططات الضرارية النفاقية، فإنّ أخطر ما يُهدّد المتآمرين على الأُمّة والعقيدة وقيادتها المخلصة وكيانها السياسي، هو وحدة الأُمّة وتماسكها، لذلك يعملون على تفريقها وتمزيق وحدتها.. وهذا الإيحاء التوعوي والثقافي يُوضّح لنا إنّ أي جماعة، وفي أي زمان ومكان تقوم بنشر الفرقة والخلاف، وتثير التنازع في صفوف الأُمّة، إنْ هي إلّا جماعة ضرارية.. هدفها الإضرار بالأُمّة ومصالحها وعقيدتها.

ومن أهداف هذه المؤسسة الضرارية التآمر على الأُمّة وعقيدتها بالتعاون مع أعدائها في خارج حدودها والتنسيق معهم، بعد أن يئسوا من قدرتهم على مواجهة التحوّل والانقلاب الفكري والاجتماعي الشامل.. فراحوا يستنجدون بأعداء الأُمّة والعقيدة من خارج الحدود.. وهي دولة الرُّوم آنذاك ومَلكها قيصر ويدعونهم لاجتياح البلاد والدولة والكيان السياسي، ويعدّونهم بأنّهم القوّة المساندة لهم، والرصد الجاسوسي الذي يُزوّدهم بالأخبار والمعلومات، ويعمل كحاضنة لهم..

ذلك ما نقرأه في النص القرآني الذي تحدّث عن أهداف هؤلاء المنافقين، قال سبحانه: ﴿ **وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ** ﴾.. فكانوا هم ومسجدهم الرصد لأبي عامر الراهب زعيم المؤامرة المستقر في دولة الرُّوم في الشام، والذي كانوا ينسقون معه لغزو جيش الرُّوم للمدينة المنورة، والقضاء على الدعوة ودولة الرسول ﷺ الإسلامية.

ويكشف القرآن الشعارات والادّعاءات الكاذبة التي يتستّر بها أولئك المنافقون.. إنّهم يظهرون للرسول ﷺ وللأُمّة المسلمة، ويحلفون بالله، ويؤكّدون دعواهم بالإيمان.. إنّ هدفهم من اتخاذ هذا المسجد هو (الحسنى).. إنّهم يدَّعون إنّما يريدون عمل الإحسان والخير والمنفعة.. والله يشهد إنّهم لكاذبون.. والشاهد هو مَن اطّلع على الحقيقة وشهد بها وكشفها.. والله هو الشاهد المطلع على الحقيقة وعلى ما يخطّطون ويبيتون..

ثمّ يستمر بيان القرآن ومخاطبته للرسول ﷺ: ﴿ **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ (التوبة/ ١٠٨).

إنّ القرآن بعد أن كشف للرسول ﷺ هذه المؤامرة، يطلب منه أن لا يستجيب لدعوتهم.. فقد دعوه ليصلّي في هذا المسجد ليمنحه الشرعية والاعتبار، وليستغلوا هذا الحضور النبويّ كتأييد لهم يتستّرون به..

ويدعوه إلى أن يقوم في مسجد التقوى (مسجد قُبا)، فهو أحق بالتأييد وترسيخ وجوده ومشروعيته لأنّه بُني على الصدق والتقوى والإخلاص.. وفيه أُناس يحبّون أن يتطهّروا من الذنوب والآثام، والله يحبّهم لإخلاصهم وطهارة ضمائرهم وصدقهم وسلامة أهدافهم.. فهم الذين يريدون الحسنى، وليس أولئك المتستّرين.. وهذا التوجيه القرآني يوحي لنا ولقيادات المجتمع عبر الأجيال بعدم التعاون أو إسناد المتستّرين والضِراريين، والوقوف مع المخلصين وتأييد مشاريعهم ومؤسساتهم، وأن لا نساوي بين المؤمنين المخلصين، وبين المنحرفين والمنافقين والمرتبطين بأعداء الإسلام.

العبرة من الحادثة

وفي هذه الحادثة التأريخية نجد العبرة والموعظة والدرس البليغ لأجيال الأُمّة المسلمة ولقيادتها.. لعلّ من أهمها:

١- النفاق والمؤسسات الضرارية بشتّى صورها: العقيدية والاجتماعية والسياسية... إلخ، خطر على وحدة المجتمع الإسلامي وأمنه وسلامته وعلى هُويته العقيدية وكيانه السياسي.

٢- إنّ المنافقين يتستّرون بواجهات وشعارات كاذبة لمخادعة المجتمع والقيادات المخلصة، فيجب كشفهم والحذر منهم.

٣- إنّ الحسد والتنافس على المواقع القيادية والظهور الاجتماعي يدفع البعض لانتهاج أسوأ الأساليب وأكثرها خطورة.. ومنهجهم في ذلك: "الغاية تُبرِّر الوسيلة"، وذلك ما فعله فريق من بني غُنم بن عوف مع فريق من المؤمنين، وبالدافع ذاته اتخذ أبو عامر الراهب الموقف المعادي من رسول الله ﷺ ظنّاً منه إنّ النبوّة منافسة قياديّة، إذ كان أبو عامر الراهب يعمل على أن يكون القائد الديني في المدينة قبل مجيء الرسول ﷺ.. فلمّا جاء الرسول ﷺ إلى المدينة وانتصر المسلمون في معركة بدر، هرب إلى الطائف.. وعندما انتصر المسلمون في معركة الطائف، هرب إلى بلاد الشام.. وراح يعمل ويخطّط للتآمر على الإسلام ودولته مع دولة الرُّوم.

٤- إنّ القيادات الإسلامية المخلصة يجب أن تتخذ موقفاً حازماً من هؤلاء المنافقين، ولا تمنحهم فرصة التأييد والنموّ في المجتمع.. ويجب عليها أن تقف إلى جنب المنافس المخلص والنزيه في دعوته، كما فعل الرسول ﷺ بأمر من الله سبحانه ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ (الأحزاب/ ٢١).

٥- يجب إلغاء وإسقاط هذه الكيانات والمؤسسات الضرارية وعدم السماح بوجودها، كما فعل الرسول ﷺ في مسجد الضرار.. فقد هدَّمه وحرَّقه وحوَّله إلى مكان لجمع القاذورات.

إنّ هـؤلاء المنـافقين يلتجـأون إلى أعـداء الأُمّـة في خـارج الـبلاد، ويتحوّلون إلى حواضن وعُملاء ومراصد لهم.. ويتعـاونون معهم للإجهـاز عـلى كيـان الأُمّـة الفكـري والـسياسي... إلخ، لذا فـإنّ مراقبـة نـشاطهم وتحركهم للحيلولة دون تنفيذ مخططهم من واجبات الأُمّة والدولة.

٧- وفي الحادثة نقرأ الفارق بين الفاسق أبي عامر الراهب، وبين ابنه حـنظلة، غـسيل الملائكـة الذي اسـتشهد في معركـة أُحُـد، وكان جنبـاً فغسلته الملائكة.. وفي ذلك عبرة وموعظة وصورة مُعبِّرة عـن التحوُّل الفكري والروحي الكبير الذي يحدثه الإسلام في الأُسرة الواحدة.

ساعة النـــدم

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس/ ٥٤).

لكلّ فعل وموقف يفعله الإنسان ويتخذه عاقبة ونتيجة.. والعاقبة هي نتيجة طبيعية لذات الفعل والموقف.. والنتيجة والآثار التي يتركها الفعل والموقف الإنساني لها بُعدان: بُعد في العالم الخارجي، كما في الوضع الاجتماعي والاقتصادي والصحّي والسياسي والأمني... إلخ. وبُعد يُمثّل طبيعة الاستجابة النفسية وردّ الفعل النفسي للفعل والموقف.. فمن يفعل الخير والمعروف يشعر بالرّضا والسرور عن فعله وعمله، ويزداد نشاطاً نفسياً وروحياً وإقبالاً على أفعال الخير والمعروف.. ومَن يفعل الشرّ والأذى والإساءة لنفسه وللآخرين ثمّ يستفيق وعيه وضميره، يشعر بتأنيب الضمير والندم والمعاناة النفسية نتيجة فعله السيّئ الشرير.. والندم هو شعور بالحسرة والألم النفسي والوجداني على أمر فائت.. ويتمنّى النادم لو أنّه لم يفعل ذلك الفعل الذي جلب له الحسرة والألم والندامة، ولكن بعد فوات الأوان ووقوع الكارثة.. كَمَن يقتل نفساً،

أو يغتصب مالاً، أو يظلم أحداً، أو يؤذي بريئاً ثمّ يستفيق ضميره ووجدانه أو يرى العذاب والمصير المظلم، فيرى سوء ما فعل وارتكب من جريمة وعدوان فيندم، وتنهش الحسرات أعماق نفسه.

والندمُ عذابُ الضمير، وعقابُ النفس المنطلق مِن الوعي الباطن عند مرتكب الجريمة.. عند مَن ضَيَّع الحقّ، وارتكس في أوحال الباطل.

والقرآن يفيضُ علينا بالوعي والثقافة السلوكية والإرشاد النفسي، فيدعونا إلى أن نتسلّح بالوعي والفهم العميق والدقيق للمواقف والأعمال والأقوال التي تصدر عنّا فنقيّمها ونوّزنها ونُقدِّر عواقبها ونتائجها قبل أن نقدم عليها؛ لئلّا تكون العاقبة هي الحسرة والندم على ما فعلناه.. فالمغرور الذي ركبه الطغيان والغرور.. غرور الثروة والمال والسلطة والقوّة والشهرة فاندفع بلا وعي ولا تقدير لأفعاله ومواقفه فارتكب الجرائم والمعاصي والعدوان على الآخرين، أو وضع نفسه في مواضع فوق طاقته أو استحقاقه وقدره، أو اندفع تحت ضغط الشهوة والغضب والانفعال، أو لم يلتزم بأُصول العمل ومراعاة نظم الحياة وقوانينها، فأعقب الحسرة والندم.. فكم من شخص ذهب ضحيّة الشهوة المحرّمة.. وكم من شخص ذهب ضحيّة العجلة وسرعة السير.. وكم من شخص ضَيَّع أمواله وأهله وأُسرته بسوء تصرّفه.. فأصبح يُقلِّب كفيه ويعضّ على يديه حسرة وندماً.. ويتمنّى لو أنّه استمع إلى نصيحة مَن نصحه، أو اتعظ بغيره، أو التزم بأحكام الشريعة وإرشادها أو عاقه عائق فلم يفعل.. ولكن بعد

فوات الأوان.. فبقي هذا المخطئ فريسة للحسرة والندم والملامة، وضحيّة لسوء تصرّفه ودوافعه الشريرة.

والقرآن يتحدّث عن أولئك الخاطئين العصاة.. الذين كفروا بنعم الله وسخروا من شريعة الله وحاربوا الحقّ.. وظلموا وأجرموا وطغوا وبغوا في البلاد.. ويُصوِّر لنا عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ويُحذِّرنا مِن الكفر والظلم والمعصية والطغيان.. ويُصوِّر لنا عظم هذه المعاصي على الإنسان يوم الحساب والجزاء.. إنّ هذا الإنسان يودّ لو أنّه مَلَكَ الدنيا التي نازع الناس عليها وسفك الدماء وهتك الحرمات ومارس ألوان الظلم والطغيان من أجلها.. يودّ لو أنّه يستطيع أن يقدم كلّ ذلك مقابل دفع العقاب وإنقاذ النفس ولكن دون جدوى.. وهاهو يصطلي بنار العذاب، وبجحيم الحسرة والندم.. ذلك ما نقرأه في قول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ (يونس/ ٥٤).

ويتوالى تحذير القرآن وإنذاره من الغفلة وعدم التهيُّؤ ليوم الحساب والجزاء، ومن أن يندم الإنسان بسبب أفعاله السيّئة وجرائمه وظلمه ومعصيته لخالق الوجود.. ويُسمّي ذلك اليوم بيوم الحسرة على الظالمين والعصاة والمجرمين.. جاء هذا التحذير في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (مريم/ ٣٩)..

لقد فات الأوان، وانتهت فرصة التلافي، وهم في غفلة ساهون.. فلا ينفع الندم.

ويتحدّث القرآن عن ندامة الأتباع لإتباع قياداتهم الضالّة المنحرفة التي خدعتهم وضللتهم وجنت عليهم وأوصلتهم إلى الهاوية في الدنيا والآخرة، وأصبحوا مجرمين ومعذَّبين بسبب هذا الإتباع، وتلك القيادات.

كلّ هذا التثقيف القرآني ليعي الإنسان مسؤوليته في اختيار العقيدة والجماعة والقيادة التي ينتمي إليها.. لاسيما ذلك الانتماء الذي يُقرّر مصيره.. نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (سبأ/ ٣٣).

وفي موقعٍ آخر، يُحذِّر القرآن ويُكرِّر التحذير من قيادات السُّوء الذين يخدعون البسطاء والأتباع ويجعلونهم سُلَّماً للوصول إلى أهدافهم، فإذا واجهوا ساعة الندم والعقاب وخسروا ما كانوا يوعِدون به أو ما قد حصلوا عليه من حطام الدنيا من السلطة والمال والوجاهة وغيرها، تبرّأوا من أتباعهم، وراحوا يُحمِّل بعضهم بعضاً أسباب الكارثة ويلعنه، ولكن بعد فوات الأوان، وقد أحاطت بهم الحسرات وساعة الندم.

لنقرأ مرّة أخرى بيان الوعي والنذير: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ (البقرة/ ١٦٧).

ويتواصل تحذير القرآن وتثقيفه وتوعيته في قضية عقيدية وسياسية واجتماعية خطيرة، وهي قضية الولاء.. فكما تحدّث عن الولاء للقيادات الظالمة والمنحرفة التي تقود إلى الندم والحسرة، كذلك تحدّث عن الولاء المزدوج.. والنفسيات القلقة في إيمانها وولائها للإسلام والمسلمين، والتي تبطن الولاء لأعداء الإسلام والمسلمين العقائديين.. كشف لنا القرآن عن الظاهرة النفسية المرضية والنفاقية بقوله: ﴿ **فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ** ﴾ (المائدة/ ٥٢).

وبذا يُوضّح القرآن إنّ أصحاب هذه النفسيات المزدوجة الولاء.. المذبذبين في عقيدتهم ومواقفهم، يبحثون عن المكاسب المادية والسياسية والاجتماعية ويتخذون العقيدة ستاراً ووسيلة لتحقيق أهدافهم الدنيوية.. ينطبق عليهم قول الشاعر:

لا خـــيرَ في ودِّ إمـــرئٍ متلـــوّنٍ
إذا الـرّيحُ مالـتْ مَـالَ حيـثُ تميـلُ

إنّ هؤلاء سيكون الندم والحسرة عاقبة مواقفهم وانتماءاتهم المضطربة عندما يتحقق الفتح والنصر للحقّ.

ويُشخِّص لنا القرآن حالة أخرى من حالات العداء للعقيدة ولمصالح الأُمّة ولأمنها واستقرارها التي تعقب الحسرة والندم والعقاب.. وهي ظاهرة الإنفاق المالي في سبيل الشيطان ومحاربة الحقّ والعدل والإيمان.. إنّ هؤلاء المموّلين، أصحاب المال والثروة التي ينفقونها ليصدّوا الناس عن الإيمان، وعن مناصرة الحقّ، ولنشر الكفر والفساد والطغيان.. إنّ أولئك سينفقون هذه الأموال، ثمّ يغلبون، ثمّ تكون أموالهم وأعمالهم حسرة عليهم.. وتلك دعوة إلى أنْ يُنفق المال لنصرة الحقّ، ونشر دعوة الهدى وقيم الأخلاق وإصلاح المجتمع، كما هي دعوة لردع أولئك المنفقين أموالهم لنصرة الباطل والضلال والعدوان والفساد.. ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ** ﴾ (الأنفال/ ٣٦).

وثمة ظاهرة أخرى تشاهد في الوضع الاجتماعي والسياسي والأمني والأسري، بل وحتى فيما يخص قبول الحديث والرواية المنسوبة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإلى الأئمة عليهم السلام غير الصحيحة يقود إلى ارتكاب الخطأ والندم، أو تلك التي يأتي بها الوشاة والكذّابون وأصحاب الكيد فيصدقها مَن تصل إليه، ويبني عليها موقفاً سلبياً أو عقاباً أو حُكماً، فيصيب

الناس الأبرياء بالأذى والضرر.. ثمّ يكتشف خطأه بعد ذلك فيندم على ما فعل ويتحمّل المسؤولية؛ لذلك يُحذِّرنا القرآن من تصديق أي خبر أو إشاعة قبل التحرّي والتبيّن؛ لنعرف المعلومة الكاذبة من الصادقة قبل أن نتخذ أي قرار خاطئ فنندم.. جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ** ﴾ (الحجرات/ ٦).

ويتواصل بيان القرآن وتثقيفه وتوعيته للإنسان، محذِّراً من التأثُّر بقرناء السُّوء، ومَن يعاشر الإنسان من الناس السيّئين ويخالطهم ويتأثّر بطباعهم وعقائدهم وأخلاقهم السيّئة.. ويُصوِّر هذا الإنسان الذي صار ضحيّة الاستماع إلى أولئك الناس والتقبُّل منهم.. يرسم صورته المأساوية، وهو يعضّ على يديه ندماً وحسرة، ويتمنّى لو أنّه لم يتعرّف على هذا المجرم الذي قاده للجريمة، وجعله ضحية الانحراف والمعصية.. يتمنّى لو أنّه استمع إلى كلمة الحقّ وهدي النبوة وتخلّق بمكارم الأخلاق.. ولكن بعد فوات الأوان؛ لذا يُحذِّر القرآن الإنسان ويدعوه لأن يبتعد عن الظلم والكفر والفساد، وعن إخلاء السُّوء ويتخذ مع الرسول ﷺ الذي جاءه بالهدى سبيلاً.

تلك الصورة نقرؤها مُجسَّدة في تصوير القرآن المعبِّر بنصه: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾**

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ (الفرقان/ ٢٧-٢٩).

وصورة أخرى من صور الحسرة والندامة ينقلها القرآن لنا مُعبِّرة على لسان المجرمين والعصاة والكافرين عندما يقرأون سجل أعمالهم، وصحيفة جرائمهم، ووثائق إدانتهم.. ما كان قولهم: لننصت إليهم عبر بيان الكتاب الإلهي الأمين: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ (الحاقة/ ٢٥-٢٧)، بل تشتدّ الحسرة والندامة واحتقار الذات، عندما يرى هذا الإنسان العاقبة والمصير المخزي.. يتمنّى لو إنّه كان تراباً، تطأه الأقدام، ولا يُلاقي ذلك العذاب والمهانة ﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ (النبأ/ ٤٠).

ولسوء ما صدر من أولئك المضيعين واللّاهين والعُصاة الذين لا يعيدون الحساب والتقييم ونقد الذات.. ولسوء ما يُلاقي هؤلاء من العقاب والعذاب والخسران، يطلق القرآن الحسرة عليهم فنستشفُّ منها الرحمة واللطف الإلهي بالعباد، والحرص على هدايتهم وخيرهم وإصلاحهم، وتجنيبهم الشقاء والعقاب في الدنيا والآخرة.. ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس/ ٣٠-٣١).

كلُّ هذه التعبئة الثقافية والتحذير وسَوق الأمثال.. كلّ ذلك ليُحذِّر الإنسان مما يقوده إلى الحسرة والندامة في كلّ مجال من مجالات الحياة.. ومما يضاعف له الحسرة والندامة في عالم الآخرة.. و: ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ (ق/ ٣٧).

بطر المعيشة.. فساد للذات والمجتمع

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل/ ١١٢).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص/ ٥٨).

مَن يُتابع النص القرآني وما حوى من فكر وثقافة، ووعي وتشريع يجده بوحدته الموضوعية يتعامل مع الإنسان كفرد وكمجتمع تعاملاً واقعياً وعملياً.. بعيداً عن المثالية وشكلية النظرية.. والقرآن عندما يتعامل مع الإنسان الفرد ومع المجتمع.. يتعامل مع منظومة متفاعلة من القوانين والقيم والمفاهيم، يؤثر بعضها ببعض، ويتأثّر به.. فوضع الإنسان الفكري والعقيدي يُؤثّر في سلوكه ومجمل حياته.. ووضعه النفسي والأخلاقي يُؤثّر ويتأثّر بالوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأمني ويُؤثّر به.. والوضع الاقتصادي يُؤثّر ويتأثّر بأخلاقية الإنسان، وبوضع المجتمع العقيدي والأمني والسياسي... إلخ. والوضع العلمي والثقافي يُؤثّر ويتأثّر بكلّ هذه المفردات ويُؤثّر فيها.. والقرآن عندما تحدّث عن دور المال،

يتحدّث عن مفردة هامة من مفردات الحياة الإنسانية وبناء المجتمع المرتبطة بمجمل مفردات المنظومة الآنف ذكرها.

القرآن يتحدّث عن المال كعنصر أساس في بناء الحياة.. وتحدّث عن دوره وتأثيره الفاعل في الاتجاهين السلبي الهدّام، والإيجابي البنّاء في سلوك الإنسان.. وتحديد وجهة المال ومجال استعماله يرتبط بعقيدة الإنسان وفكره وثقافته ودوافعه النفسية واتجاهاته الأخلاقية.. فالمال تارةً يستعمل للبناء والإعمار والإرتقاء بمالكه.. وأخرى يتحوّل إلى مشكلة أخلاقية وسياسية وأمنية وسلوكية، وسبب إلى المعصية والبُعد عن الله سبحانه الذي وهب الإنسان، فأصبح صاحب ثروة، أو مال ميسور، يوفر له ما يريد فعله بالمال.. طغى وبغى واستكبر، واستخدم المال في المعصية والعدوان والاستغراق في الشهوات المحرمة والسقوط الأخلاقي.. والقرآن تحدّث كثيراً، وفي عشرات الآيات، عن هذه المشكلة الإنسانية، وحذَّر منها، وعرض نماذج عديدة للنتائج المدمِّرة للمال والثروة المستخدمة في الاتجاه الهدّام والمنحرف.

ويمكن أن نجد ثلاثة أمثلة من هذه النماذج تجسد فيها الدور السلبي لاستخدام المال وتوظيفه الهدَّام، وهو من كفران النعم، ونكران الفضل الإلهي على الإنسان.. نورد هذه الأمثلة للإيضاح وللعبرة والموعظة، قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا**

رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل/ ١١٢).

يتحدّث القرآن في هذه الآية عمّا أنعم الله به على قرية ـ على مجتمع بشري ـ من الخير والمال والثمرات، والرزق الوفير، والعيش الرغيد.. وفي ظلال هذا الرفاه الاقتصادي والمعاشي، استقرَّ الأمن واطمأن ذلك المجتمع.. وهو ما ينشده الإنسان السعيد في حياته: المعيشة الفارهة الرغيدة والأمن والاطمئنان واستقرار المجتمع.. وذلك ما نعمت به القرية التي جعلها الله لنا مثلاً، ندرسه ونتأمَّل فيه، ونستنتج منه التجربة والعبرة، لذلك قال: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً**... ﴾.

لقد تمّت نعمة الرفاه المعاشي والأمن والاستقرار على هذا المجتمع.. والحفاظ على هذه النعمة، هو حُسن التعامل معها.. مع المال والثروة ومع الأمن والطمأنينة.. غير إنّ هذه القرية، هذا المجتمع الإنساني، لم يحسن استخدام المال والثروة والعيش الرغيد، وما ينعم به من أمن وطمأنينة واستقرار.. لقد أصابها البَطَر، وكفرت بأنعم الله، وتحوَّل المال والنعمة إلى فساد وكفر وظلم وطغيان.. فَبَدَّل الله هذه النعمة.. وتلك سنّة الله في الخلق، وقانون فاعل في حركة المجتمع وسلوكيته.. نقرأ هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنفال/ ٥٣).

لقد تَغيَّر كلّ شيء في حياة هذا المجتمع: الأمن والاستقرار، والعيش الرغيد، والرفاه المعاشي.. تَغيَّر إلى الجوع والخوف.. لقد تحوَّل المجتمع الآمن المطمئن إلى مجتمع خائف ينتشر فيه الرُّعب والخوف والعدوان والتنازع.. وتحوَّل العيش الرغيد إلى فقر وجوع وبؤس وشقاء معاشي.. لقد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف.. لقد أحاط بهم الجوع والخوف، كما يحيط اللباس بمرتديه.. تلك عقوبة إلهية بما كان يحُذِّرنا القرآن منها.. يُحذِّرنا من أنّ النعمة والثروة إذا زادت يجب أن يصاحبها الشكر لله تعالى، ومن الشكر أن يكون استخدام المال وتوظيفه لصالح الإنسان، وليس للفساد الأخلاقي وإطلاق الشهوات المحرَّمة، أو للطغيان واستعباد الآخرين والتعالي عليهم.. إنّ ما حلّ بذلك المجتمع المثالي، كان بسبب أفعالهم وأعمالهم السيِّئة.. لذلك وضَّحَ القرآن هذا السبب بقوله: ﴿ **فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل/ ١١٢).

والنموذج الثاني من نماذج طغاة المال الذين طغوا ونشروا الظلم والفساد والتحلُّل الأخلاقي في الأرض بمالهم وثرواتهم، هو فرعون.. لقد ظنَّ أنّ مُلكه وماله يعطيه حقّ الهيمنة والتصرّف في الناس كيف ما يشاء.. القرآن ينقل لنا مقالة فرعون المعبِّرة عن فكره السياسي والعقيدي هذا: ﴿ **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الزخرف/ ٥١).

وينقل لنا القرآن الكريم حديث النبيّ موسى عليه السلام عن طغيان فرعون وأعوانه المالي وفساده في الأرض بماله وثروته، شاكياً إلى الله سبحانه هذا التصرّف الفرعوني السيّئ ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** ﴾ (يونس/ ٨٨).

هاهو النبيّ موسى عليه السلام يُوضّح لنا طغيان فرعون وأعوانه المالي وفسادهم في الأرض.. إنّهم وَظّفوا المال في سبيل الضلال والفساد والانحراف والطغيان، بدلاً من الهداية والشكر والإصلاح، لذا فإنّ النبيّ موسى عليه السلام يسأل الله أن يطمس على أموالهم وما جمعوا من مال وثروة وحشم وحراسة ومقتنيات الزينة والكبرياء الفاحش.. أن يُدمِّرها ويذهبها ليتجرّدوا من أهم أدوات الظلم والفساد والطغيان، وهو المال.

ونموذج ثالث من نماذج الطغيان والفساد الاجتماعي الذي يحلّ في المجتمع بسبب الترف والبطر وكثرة الثروة والمال هو قارون.. مَلِك المال والثروة.. يعرضه القرآن مثلاً للبطر واستخدام المال في الفساد والطغيان.. وجرّ الكوارث والتحلُّل الاجتماعي والعقيدي والفساد الأخلاقي بسبب الترف والثروة والسعة في المال ﴿ **إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ**

بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (القصص/ ٧٦).

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (القصص/ ٧٧-٨٤).

بهذه المجموعة من الآيات يعرض لنا القرآن مشهد البطر والترف المالي الذي مَثَّله قارون.. وما كان يستعرض به أمام جماهير الناس ليريهم ثروته وزينته وحاشيته وحرسه وموكبه.. يتباهى بكلّ ذلك.. فكان موضع إعجاب واستهواء ضعاف النفوس.. الذين تخدعهم وتبهرهم المظاهر فكانوا يتمنّون أن يكونوا مثل قارون.. لقد كان قارون، كما يخبر القرآن، مؤمناً متبعاً للنبيّ موسى عليه السلام، فتمرَّد وبغى وانحرف وتكبَّر وطغى بماله وثروته.

وعندما ينصحه الناصحون ويدعونه إلى أن يكون شاكراً لله الذي وهبه المال والثروة، كان ردّه بتكبُّر واستعلاء.. أن ليس لله ولا لأحد فضل عليه.. كان قوله: ﴿ **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ** ﴾.. حصلت على تلك الثروة بعلمي وقوّتي ومهارتي وكفائتي.. ويردُّ القرآن على هذه المقالة التي نطق بها قارون، ويُرَدِّدها أمثاله من طغاة المال.. يردُّ عليه بقوله: ﴿ **أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ (القصص/ ٧٨).

وكما نقلَ لنا القرآن مقالة المعجبين بقارون وثروته وموكبه وزينته وبذخه وتمنّيهم أن يكونوا مثله، نقلَ لنا تقييم العلماء العقلاء الذين يتعاملون مع القيم الإنسانية.. وينظرون إلى المال والثروة التي تقود إلى البطر والترف والاستعلاء والبذخ والغرور، نظرة الزائل الذي لا يزيد من قيمة الإنسان وقدره، بل يقود إلى الفساد والهلاك وتدمير المجتمع

الإنساني.. إنّ ما يزيد من قيمة الإنسان وقدره هو إيمانه الصادق وخُلقه ودينه القويم وإنسانيته الرفيعة.

وينهي القرآن صورة هذا المشهد بما فيه من استعراض قارون وتباهيه، وحوار وتقييم، وإعجاب آخرين به، واستهانة فريق آخر.. ينهيه بالمصير المحتوم لطغاة المال والثروة.. وينهيه بقوله: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ**... ﴾.

ويعرض القرآن مشهداً آخر من مشاهد الاستخدام العدواني للمال والثروة وكفران النعمة بدلاً من شُكرها.. يُسجِّل القرآن موقف المنافقين الذين تآمروا على رسول الله ﷺ عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك.. فقد تآمروا عليه وأرادوا قتله في ممرّ العقبة في ظلمة الليل.. فقد خَطَّطوا وتآمروا أنْ يدفعوا ناقة النبيّ ﷺ من أعلى العقبة إلى الوادي.. وكان عمار بن ياسر يقود ناقته.. وحذيفة بن اليمان يسوقها.. وحين احتشدوا وكانوا اثنى عشر رجلاً، ثمانية من قريش وأربعة من قبائل أخرى وأرادوا مهاجمة الناقة، ضرب الصحابي حذيفة بن اليمان وجوه رواحلهم فتراجعت إلى الخلف حتى عبرت ناقة الرسول ﷺ العقبة، وظلَّت أسماء هؤلاء المتآمرين سرّاً.. لم يبحْ به النبيّ ﷺ ولا حذيفة ولا عمار بن ياسر.

سجَّلَ القرآن هذا المشهد بقوله: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن**

يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (التوبة/ ٧٤).

إنّ القرآن يُوضِّح أنّ هؤلاء المتآمرين كانوا فقراء فأغناهم الإسلام.. فكان جزاء هذا الإحسان إليهم أن تآمروا على الرسول ﷺ ويريدون قتله.

إنّ أخطر ما يُوظَّف به المال هو استخدامه في إسناد وتحويل النزاعات والصراعات والحروب العقيدية والطائفية والعنصرية الظالمة.. وتمويل الإعلام الهَدّام الذي ينشر الانحراف الفكري والفساد الأخلاقي والإشاعات الباطلة والفتن وتضليل الرأي العام.. كما تفعل دول ومنظمات ومؤسسات مالية وكثير من أصحاب الثروة والمال.. ذلك ما حذَّرَ منه القرآن وذكَّر بمواقف أصحاب المال من أعداء الله والإيمان، الذين بذلوا أموالهم وأنفقوها ليصدّوا الناس عن الهدى والإيمان والالتزام بالأخلاق الكريمة.. وليمزّقوا وحدة المجتمع وبُنيته الإنسانية السليمة.. سجَّلَ القرآن هذه المواقف بقوله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنفال/ ٣٦).

إنّ خطر الثروة والمال والبطر والبذخ على سلامة الإنسان النفسية والفكرية والسلوكية وبناء الحياة الاجتماعية والسياسية والحضارية، لا يقل عن خطر الفقر والحاجة والبؤس.. فكلاهما تَتَحكَّم به إرادة الإنسان

ونوازعه النفسيّة وتتعامل معه التعامل السيّئ المنحرف أو المستقيم البنّاء.. إنّ المال أمانة بيد الإنسان.. وهو كأي نعمة وقوّة بيده يختبره الله سبحانه بها.. أفراداً ومجتمعاً؛ ليسأل عن هذه الأمانة والقوّة كيف تعامل معها.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة/ ٤٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام/ ١٦٥).

وما يرتبط بعقيدة الاختبار والابتلاء ليس إفاضة الخير والنعمة على الإنسان فحسب، بل ويرتبط بهذه الحالة الصعبة هو (الإملاء).. وهو أنْ يزيد الله العطاء وطول العمر للإنسان الذي أصرَّ على المعصية، وكفران النعمة، وركَبه البطر والغرور والاستعمال المُحرَّم للنعم والثروة والمال الوفير.. إنّما يزداد مالاً وعطاءً ليزداد إثماً، لأنّه تجرَّأ على الله وأصرَّ على المعصية، وهو يتقلّب في نعم الله وإحسانه.. وذلك نوع من العقاب

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران/ ١٧٨).

فحقّ أن يتحوّل إفاضة النعم إلى نقمة وعذاب، وأنْ يزداد إثماً؛ لأنّه إزدادَ تمادياً في المعصية وكفران النعمة.. والعقاب ليس في الآخرة فحسب، بل قد يُعجّل الله بعض العقوبات في عالم الدنيا فيزيل الله نعمته، ويُسلّط عليه المصائب والمشاكل.. ولو استقرئنا حياة الكثير من الناس الذين طغوا وبغوا في مالهم وسلطتهم وكفروا النعمة، وتابعنا منتهى حياتهم لرأيناها جحيماً وعذاباً وآلاماً.. وأنّ في ذلك لعبرة لمَن كان له عقل يُفكّر، ووعي يستوعب الدروس والعِبَر من الآخرين قبل أن تحلَّ به.

- وَآخِرُ دَعْوانا أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ -